تجديف

محمد أحمد العزب

ما جدوى ان احيا واموت ولم اهدمْ سورَ مُحالْ ؟
ما جدوى ان اقرأ كلَّ الاسفار ولم أُلقِ سؤالْ ؟
ما جدوى ان يؤمنَ قلبي
ايمانَ الضاربِ في مَوجْ ؟
يتلمّس مرفأه خلف المجهول بعينيْ مجروحْ
ويُصيخ الى بَوح الروحْ
يصّاعد في خدَرٍ مبحوحْ :
« الشاطىءُ ليس هناك ، ولكن فيكَ . فحطّمْ مجدافكْ .
لا تخرقْ ناموسَ الابدِ .
لن ينجوَ الا زورقُ نوحْ » .
وتكاد قلوعي تتمرّدْ
فاصيحُ ، اصيحْ :
يا ليلُ ، انا نوحٌ آخرْ ،
نوحٌ عصريٌّ ، يقتاتُ الآلامَ ، ويُعطي افراحا .
ماذا حملتْ في الماضي كلُّ سفائنِ نوحْ ؟
من كلِّ زوجين اثنينْ ؟
انا ايضا احمل في سفُني من كلِّ زوجين اثنين
الفرقُ : سفائن نوحٍ حملتْ طيراً وجمالا
وزواحفَ تسعى ونمالا ،
حتى وحميراً وبغالا .
لكنني احمل انواعا اخرى في سفني المجهودَهْ
احمل اعصاراً ونسائمْ
احمل اشواقاً وبلادَهْ
احمل ان اعشق كل الكون ، واحمل ايضا ان اكرَهْ
لا بأس اذا كان مجيئي للدنيا في صورة مُكرَهْ !
لكنني اعرف ان احمل في قلبي ضعةً ومجادَهْ

وشقاءً مراً وسعادَهْ
اعرف ان احمل في قلبي من كلٍّ زوجين اثنينْ
ما الفرقُ اذاً بين النوحينْ ؟

ما جدوى ان نحيا لنموتْ ؟
ما جدوى ان نقرأ كلَّ الملكوت ولسنا بالملكوتْ ؟
ما جدوى ان نزرعَ ، والجوعُ هنا يقتات بما نزرعْ ؟
لا نشبع نحن ، ولا الجوع المنهوم بايدينا يشبعْ !
ما جدوى ان تطلع شمسْ ؟
ويهلَّ على الكون ربيعْ ؟
هل نامت عينٌ تحت سماء الصيف الحلو ولم تدمعْ ؟
هل غنّى الخصبُ المقتحم المعطاء على شفتيْ بلقعْ ؟
هل مات الشرّ من العالمْ ؟
قابيلُ على اهراء الفجر الاول جندلَ هابيلْ
وبوسعي ان أُقسمَ : ان المأساة على مسرحنا ما زالت حيّهْ
لا ترفعْ صوتك كالمرتاع الواجف . ابداً . لا تفزعْ .
فتشْ في ثوبك . سوف تعانق قابيلَ الثاني !

وشوشني انسانٌ عصريّ :
هبْني حاخاماً اتعبّد لله على ملة موسى ؟
هبْني صوفيّاً اتعبّد لله على دين محمدْ ؟
هبْني قسيساً اتعبّد لله على ملة عيسى ؟
هبْني بوذا ؟
ماذا يُجدي ؟
ما دمنا نُسحق — إن اخطأنا — كالحشرات على ارض جهنمْ ؟
« أن نحيا لا نخطىءُ » .
هذا ما ترجو منا الاديانُ .
اني اسألكمْ روحَ الربِ لكيلا يكبو الانسانُ
... وفتحتُ فمي كي اقنعهُ
فاسترسلَ : لا تنبسْ ، ارجوك ، ماذا ستقول ؟ الشيطانُ ؟
ان كان الاقوى ، فسأعبد هذا الاقوى .
كفّي في كفّيه حمامهْ

عيني في عينيه رسالهْ
اني اهواهُ ، لاني ابداً القاهْ .
ابداً يبهرني بالمجهولِ .
فعمري سفَرٌ مجهولُ
وبقلبي للريح وللبحر العاصف توقٌ مخبولُ !
... وفتحتُ فمي كي اقنعهُ . واصاخ اليّ .
فهمستُ به : لا تتعجّلْ .
أتريد اللهَ مدًى مقفلْ ؟
ام كوناً مفتوح الآماد ؟ وايهما قلْ لي اجملْ ؟
لو ان الله استلقى في ابهاء الخير لحدّدناهْ
لكن الله الكلّ يخلق ابداً في كل الاجواءْ
وأؤكد انّا لو حدّقنا سوف نراهْ
لكنْ كالهْ
فافتحْ عينيك .
الله ينام على كفّيك وانت تُبرعمُ ازهارَكْ .
ويضجّ ويصحو في عينيك وانت تحطّم انيارَكْ .
ويصيح على شفتيك وانت تؤازر معنى كونيّا
او عدميّا .
اما ان تبصر ربك « شيئاً » في كفّيكْ
« جسداً » يستلقي تحت شعاع من عينيكْ
فتأكّدْ ان الله لديكْ
لا يعدل سيجاراً يتنهّد في شفتيك وبين يديكْ !
والآن ، تكلّمْ . هل آمنتْ ؟
لكن الانسان العصريّ مضى ... للريح ، وللبحرِ ،
ولالفِ مغامرةٍ اخرى
خلف الآفاق وخلف شواطىء من حجر صخري
من يدري : قد يرجع بالنورِ ، وقد لا يرجعُ ، من يدري !
والآن ، لأسأل في ادب :
مَن منّا اقنعه الآخرْ ؟
مَن منّا اقنعه الآخرْ ؟